

تجليات وجدان الفرد وهوية المجتمع في اللغة -قراءة تداولية-

Manifestations of the Individual's Conscience and Community Identity in Language

-Deliberative reading -

الدكتور: فيصل كوريفة

faycalmammar88@gmail.com

جامعة علي لونيسي –البليدة 02- (الجزائر)

تاريخ النشر: 2020/09/02

تاريخ القبول: 2020/08/14

تاريخ الإرسال: 2020/08/07

الملخص:

يستمد هذا البحث وجوده من الفكرة القائلة: اللغة معاملة إنسانية ومرجعية وجدانية، ومن ثم فهو يروم الكشف عن العلاقة القائمة بين الإنسان واللغة، كما يهدف إلى إبراز أهمية المجتمع في تكوين اللغة وتشكيل نظامها العلاماتي على جهة يستطيع خلالها أفرادها التواصل فيما بينهم، وكذا التفاهم وفق نوااميس المؤسسة الاجتماعية المتناسكة، ينضاف إلى ذلك محاولة تعرية التعالق الحاصل بين ممارسة اللغة وأشكال الهوية وأفعالها، حتى لكأن الناظر إليهما يخالهما شيئين تجسدا في جوهر واحد، أو أنهما جوهرا لشيء واحد، يدل أحدهما على وجود الآخر بالضرورة.

الكلمات المفتاحية: اللغة؛ الهوية؛ المجتمع؛ الممارسة؛ الفكر؛ الحضارة.

Summary:

This research derives from the existence of the idea that language is a humane, referential and emotional treatment. It aims to unearth the existing relationship between man and language. The paper is also intended to highlight the importance of society in forming language and shaping its sign system through which its members can communicate with each other, and understand each other according to the principles of the coherent social institution. In addition, it attempts to reveal the correlation between the practice of language and the forms of identity and its actions that seem to be two things embodied in one essence or two essences of one thing, where one necessarily indicates the existence of the other.

Key words: language, identity, society, practice, thought, civilization.

1- مقدمة:

تمثل اللغة أهم خاصية يتفرد بها الإنسان، فمنذ وجد وجدت اللغة معه، وقد عرف السبيل إليها من دون موجه أو تدخل من أي جهة كانت، غير الفطرة، حيث وضع أولى لمساته على سجل الحياة بصرخته في جويلفه الهدوء والصمت، وكذا الظلام الرهيب، صرخة لكأنها تعبير يبين طبيعة الإنسان وعلاقته باللغة، أو لعلها إشعار عن عناصر تكوين هذا الخلق العجيب! خلق يقع على عاتقه فعل النهوض بمهمة الحياة، فهو يضطلع بمهمة عمارة الأرض من خلال بناء المجتمع وصناعة الحضارة وإنتاج الثقافة والفكر، يكون ذلك عبر اللغة.

خرج الانسان إلى الوجود آخذاً يخط معالم عالم جديد، عالم جوهره اللغة وقوامه الحضارة والمجتمع والفكر، فلعله أن لا يكون قد شق طريقه نحو وسيلة تنقل أفكاره وأغراضه غير جنوحه ناحية اللغة، كونها الوسيلة الطبيعية الوحيدة التي تمكنه من التواصل مع محيطه والتفاعل مع وسطه الاجتماعي، بحيث يحصل على المعارف والفنون ويبث هو الآخر أفكاره وتصورات في أرجاء البيئة الاجتماعية التي تؤويه، واللغة بوصفها ظاهرة اجتماعية، فإنها تحمل بعض أوصاف الانسان، يعترفها ما يعترفه من عوامل الحياة أو الفناء والتطور والنماء والازدهار والانتكاس، فهي تحيا وتنمو وتزدهر في ظل التداول القائم على تفعيل قدرتها التواصلية في الحقول المعرفية المختلفة، والمكنة على استعمالها في مختلف المواقف التواصلية، كما يعترفها الفناء والتطور المفضي إلى الانتكاس حين يعدم الانسان مهارة التمرس بها والتواصل.

ليس يخفى أن الفكر والمجتمع والحضارة هي ظواهر إنسانية متداخلة العلاقات آخذة في التجانس؛ لكانها نسيج واحد في عنصر مادته، تقيء منسجمة في نسق تجسده اللغة بدينامية اللامتناهية، بيد أن الظاهرة الاجتماعية تظل مشدودة إلى فواعل مختلفة كالتقاليد والعادات والمعتقدات وغيرها، هذا ما يجعل اللغة واقعة تحت تأثير هاته الفواعل والعلاقات، ذلك أنها المرأة الكاشفة عن هوية الانسان وفكره وثقافته وتراثه التليد، فاللغة هي الوسيلة التي يعبر بها عما في نفسه من أغراض، وبها يظهر ما ترسب في أعماقه من خواطر وعواطف وتطلعات، ومن ثم تكون اللغة هي العنصر الجوهرى البارز للتعريف بالإنسان وبقائه حيا في وسط اجتماعي متماسك، من ههنا يسوغ القول؛ إن اللغة هي المادة الأولى لبناء الصرح الثقافي والفكري لمجتمع الوعي، مجتمع الحضارة والرقى.

لعله أن لا يكون قد عرف الانسان ظاهرة على قدر كبير من الأهمية والتعقيد كخبرته بظاهرة التواصل والتفاعل مع محيطه الاجتماعي، كونه خلقا متفردا تنطوي نفسه على أغراض ومقاصد شتى، لذا فهو عظيم الميل إلى فعل التواصل والإبلاغ، ولئن كانت هناك وسائل شتى تمكنه من تنجيز فعل التواصل؛ فإن الوسيلة المثلى لهذه العملية هي اللغة، يتعاطها الانسان عن وعي وميل شديد حتى لكان بينه وبينها وشائج قربى وصلة رحم، فما هي اللغة؟ وهل تعاطيها هو تعبير عن وجدان الفرد وشخصيته؟ وما علاقة شخصية الفرد بهوية المجتمع؟

إن القراءة التالية محاولة للإجابة عن هذه الانشغالات من خلال هذه الورقة.

تعريف اللغة:

أ- اللغة لغة:

اللغة من الأسماء الناقصة، وأصلها لغوة وقيل لغا يلغو ولغا فلان عن الصواب وعن الطريق إذا مال عنه، واللغو: النطق، يقال هذه لغتهم التي يلغون بها أي ينطقون بها¹ وتطلق لفظة اللغة في التراث العربي ويراد بها اللسان، جاء في خطاب الباري تعالى: "بلسان عربي مبين"²، فلا خفاء أن "الباء للملابسة، واللسان: اللغة، أي؛ نزل بالقرآن ملابساً للغة عربية مبينة، أي؛ كائناً القرآن بلغة عربية"³، ومنه قوله تعالى: "وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه"⁴، والمراد ههنا "متلبساً بلسان قومه" متكلماً بلغة من أرسل إليهم من الأمم المتفقة على لغة سواء بعث فيهم أولاً، وقيل: بلغة قومه الذين هو

منهم وبعث فيهم⁵، ففي ضوء هذه الآية يدرك المتلقي أن كل قوم اختصوا بلسان (لغة) به يتواصلون، ويعبرون عن أفكارهم وتقاليدهم وحاجاتهم في الواقع والحياة.

ب- مفهوم اللغة:

جاء مفهوم اللغة على أنها "أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم"⁶، فالناظر إلى هذا التعريف يجده مشدودا إلى عصر منتجه، وهو واحد من علماء العربية المبرزين، وما تستقر على هذا الرأي وتمضي عاكفا على قراءة التعريف محاولا استنطاقه حتى تلحقه بالدراسات اللغوية الحديثة، ذلك لأنه أحاط باللغة من جميع جهاتها، فهو بحق على قدر كبير من الدقة والرصانة، حيث جاء على ذكر الكثير من "الجوانب المميزة للغة، أكد ابن جني [ت392هـ] أولا الطبيعة الصوتية للغة، كما ذكر وظيفتها الاجتماعية في التعبير ونقل الأفكار، وذكر أيضا أنها تستخدم في مجتمع فلكل قوم لغتهم، ويقول الباحثون المحدثون بتعريفات مختلفة للغة، وتؤكد هذه التعريفات الحديثة الطبيعة الصوتية للغة والوظيفة الاجتماعية للغة وتنوع البيئة اللغوية مع مجتمع إنساني لآخر"⁷، فلا جرم إذن أن ابن جني في تعريفه للغة كان يستند إلى المنهج العلمي الذي يحدد حقيقة الشيء ويفسرها بناء على معطيات دقيقة يصدقها الواقع، فعندما تلفه يقول بأن اللغة "أصوات" فهو ههنا يركز في درسه اللغوي على الجانب المنطوق من اللغة المحقق فعلا عن طريق الكلام، ولهذا ألغى من دائرة اهتمامه اللفظ أو الكلمة وهو يحاول صياغة تعريف للغة، والحقيقة أن الصوت هو الجهة التي تمحورت حولها الدراسات اللغوية الحديثة.

أشار ابن جني في تعريفه قبل قليل إلى تعدد اللغات والألسنة، وأن كل مستعمل للغة ما له أغراض ينفرد بها، ومن ثم يكون هذا التعدد اللغوي والألسنة والأغراض مفضي إلى تعدد المجتمعات والأفكار والهويات كذلك، فلا غرو إذن أن "وجود اللغة يشترط وجود مجتمع، وهنا يتضح الطابع الاجتماعي للغة، فليس هناك نظام لغوي يمكن أن يوجد منفصلا عن جماعة إنسانية تستخدمه وتتعامل به، فاللغة ليست هدفا لذاتها، وإنما هي وسيلة للتواصل بين أفراد الجماعة الانسانية، إن الفرد الواحد يشارك في عملية الكلام في مواقف الحياة، وباختلاف المواقف الكلامية التي يعيشها الفرد تختلف مشاركته في استخدام اللغة، وهنا يجد الباحث من الضروري أن يميز بين اللغة بوصفها ظاهرة اجتماعية والاستخدام الفردي لها باعتباره يختلف باختلاف الأفراد وباختلاف المواقف الكلامية التي يستخدمون فيها اللغة"⁸، فاختلاف الأفراد دليل على اختلاف الأفكار والمشاعر، وهنا تكون اللغة ناقلا أميناً لمشاعر المتكلم وأغراضه، أخذاً تنسج شخصيته الثقافية والفكرية عن طريق ألفاظها وعباراتها وتراكيبها المترابطة العلاقات.

2- شخصية الفرد وتجليات وجدانه في اللغة:

غدا الوعي بأهمية البحث في علاقة الإنسان باللغة وقدرتها على تشكيل شخصيته وصياغتها على جهة متفردة، وتأثيرها البالغ في سوق أفكاره على نحو معين؛ غدا ذلك شغلا ليس مقصورا على باحث دون آخر قديما وحديثا، واللغة بوصفها حاملا معرفيا يربط الفرد بحيطه ويعطفه على وسطه الاجتماعي؛ ما فتئت "تنشب جذورها في أقصى أعماق الشعور الفردي، ومن هنا تستمد قوتها لتنتفتح على شفاه بني البشر"⁹ أخذاً تجسد أفكار الفرد مبرزة أغراضه بعدما كانت مجرد أحلام وأحاديث نفس يكتنفها الغموض والابهام، بحث

تكسوها ببعض موادها، ومن ثم تضيف عليها ظلالاً من الدلالات والمعاني لتجعل منها أفكاراً حية دالة على متكلم متفرد يتمتع بشخصية متميزة.

استعمال اللغة في المواقف المختلفة، وتعاطيها بشكل خاص؛ هو ممارسة فعلية لقيم وجدانية تنطوي عليها شخصية الفرد المتكلم، وتجسيد مادي حقيقي لهويته، ولعل هذا الذي جعلهم يعتبرون الهوية وظيفة ثالثة ومميزة للغة، والكف عن محاولة الفصل بين الروابط القائمة بينها، ذلك أن فعل التلقي وبناء عملية الفهم، يتم عبر معرفة هوية القائلين والكتاب والمحاورين، "إن الذي يهم هو أن ندرك أنه إذا اختزل استعمال الناس للغة بطريقة تحليلية في كيفية تشكيل المعنى وتمثيله في صوت، أو في كيفية إيصاله من شخص إلى آخر، أو حتى فيهما معاً، فإن ثمة شيئاً حيويًا قد استخلص؛ إنهم الناس أنفسهم، إنهم حاضرون دوماً في ما يقولون وفي الفهم الذي يبنونه على ما يقوله غيرهم، إن هويتهم تتأصل في صوتهم، ويكون ذلك ملفوظاً، أو مكتوباً، أو مَوْقَعاً¹⁰ فأنت إذ ذاك؛ إزاء إنسان متفرد أخذ يلقي خصائصه الشخصية لتقع في قبضة اللغة، فلست تفصل حينها بين أفعال الخطاب الذي شكلته مواد اللغة، فصار بنية ظاهرة، وبين هوية بثها المتكلم في عناصر الخطاب ودكها في الألفاظ والعبارات والجمل.

تتساق مواد اللغة وتأتلف لتشكل نسقاً لغوياً متفرداً، تقع في قبضته معان هي أغراض الفرد المتكلم وأفكاره، يروم توصيلها عبر النظم، فاللغة إذ ذاك؛ تعيد "تنظيم الفيض المتواصل من التجارب المحسوسة وتأويلاتها المختلفة، إنها في الواقع عملية تأطير لأفكار ترتب العالم على نحو يتلاءم مع مقولات الذهن والوجدان المتجسدين في اللسان، فكل تحقيق فكري -لغوي لا يأتي نسخة مباشرة عن واقع معين، إنما يبلور نظرة خاصة إلى هذا الواقع منبثقة عن الكائنات، فالأسماء والنعوت تبرز المزايا والخصائص، والفعال تدل على التبثقات والتحويلات، والحروف الواصلة والفاصلة تفسر علاقات الإسناد والتبعية زمنياً ومكانياً، أو روابط التضاييف والنسبة بين الموجودات"¹¹، وهكذا تكون اللغة قد وفرت على الفرد الناطق بها كفلاً ضخماً من الاختيارات التي تظاهره على إخراج أفكاره من دائرة الصمت إلى رحابة البوح والتحقق، إن اللغة تسعف مستعملها في تجسدي أفكاره والتعبير عما ترسب بين جوانحه من أغراض ومشاعر وأحاسيس في المواقف الكلامية المختلفة.

المتأمل في شأن اللغة وما تجيء به من مقاصد وأغراض شتى؛ يتحسس في عناصرها إحياءات دافقة بالدلالات المختلفة، تلوح معانها في الذهن على أنها أفكار المتكلم ساقها عبر اللغة، من ثم يتلقفها المتلقي وفق قواعد التخاطب المتفق عليها في بيئته، هذا ما جعل بعض الدارسين يقرر "أن سلطان اللغة الذي لا يقاوم قادر على أن يحدد نظرنا إلى الحياة ويرسم طريقنا فيها، ورأوا أن الإنسان ليس حراً فيما يأخذ وينبذ، ويناصر وينافر، وإنما هو عبد طيع في يد اللغة التي تعرفه الواقع، وتحدد موقفه من المشكلات الاجتماعية المحيطة به من كل جانب"¹²، وإذا ما انبرى على قراءتها قصد فك رموزها لا يجدها سوى تعبيراً صادقاً عن شخصية المتكلم حاملاً أغراضه وأفكاره.

واللغة بطبيعتها، دالة على الإنسان، هذا الكائن المتفرد الذي يتوق التطور، يحمل بين جوانحه أفكاراً وتصورات، يسعى لأن يجعلها في الواقع عبر اللغة، بوصفها وسيلة تحمل بعضاً من مميزات المجتمعات الإنسانية

"يعتريها ما يعتري الكائن الحي، من تغير وتغيير وزيادة ونقصان، ومرض وصحة وحياة وموت"¹³ فعندما ينتقل مجتمع ما من نمط عيش إلى آخر، أو من حياة إلى أخرى هو إيدان بفناء بعض الألفاظ، أو استعمالها في غير ما وضعت في الأصل، غير أن الاتفاق الاجتماعي المنعقد حول دلالة هذا اللفظ أو ذاك كفيل ببناء عملية الفهم وتأمين فعل التواصل من التعثر.

تنطوي اللغة على أشياء تنبجس منها، أو لعلها ناشئة عن قصد الفرد المتكلم وأغراضه، ومن ثم يدخل في نطاق البحث عن مقاصده وصورته المرتسمة في التعبيرات التي أنتجها؛ استحضر صور الأشياء ومدى قدرته على التعبير عنها، وذلك بالنظر إلى العلاقة القائمة بينه وبين اللغة، هذا ما جعل بعض الباحثين المهتمين بشأن اللغة والانسان يرى بأن "المتكلم يقحم مشاعره في كلامه كله أو جله، لأن الانسان لا يستخدم اللغة للتعبير عن شيء فحسب، بل للتعبير عن نفسه أيضا"¹⁴، حتى لا تظل أغراضه ومشاعره كامنة وراء الصمت، فاللغة عالم رحب يتجه ناحيته الانسان ليفرغ في أطوائه أفكاره ومقاصه، ومن ثم ترتد إليه صورته ماثلة في النسق اللغوي على شكل نغم عذب يطرب له الوجدان وتتحرك له المشاعر.

3- الاستعمال الشخصي للغة تعبير عن هوية المجتمع:

ليس من وسيلة عرفها المجتمع البشري واتخذها أداة تفكير وتعبير، غير اللغة، فيها يتواصل الانسان مع محيطه، وعبر اللغة ينقل أفكاره ومقاصده، فاللغة قدرة جبارة تستوعب تصورات الانسان ورؤاه، وكل ما يتعلق به من أشياء مادية أو معنوية، إنها وسيلة تنطوي على رصيده الثقافي والمعرفي والحضاري، إن اللغة "تمكن الانسان من الحفاظ على ثقافته وحضارته والإضافة إليها، وتطويرها في ضوء التصور الاعتقادي والاجتماعي الذي يؤمن به"¹⁵ حيث كانت اللغة تنقل ثقافة المجتمع عن طريق المشافهة والسماع، لهذا يكون العصر الحديث قد فقد كفلا عظيما من التراث الانساني التليد، وبعد أن عرف الانسان طريقه إلى الكتابة والتدوين أضحت هذه التقنية الجديدة لا تغادر شيئا من ثقافة المجتمعات.

الانسان كائن متفرد بطبعه، ميال أبدا إلى إبراز خصائص شخصيته المتميزة، فهو في رحلة دائبة في سبيل الكشف عنها، ولن يجد وسيلة مثلى تنقل عنه هذا التميز الكامن غير اللغة، فيلتجئ إليها مجسدا بذلك هويته في ضوءها لما توفره له من إمكانات هائلة، ذلك أن "اللغة قوة كبيرة من عملية التنشئة الاجتماعية، وإن الحقيقة الفريدة للكلام المشترك تسخر بشكل خاص كرمز فعال من التضامن الاجتماعي لدى أولئك الذين يتكلمون اللغة، وإن القيمة الأساسية لصوت المرء، والأنماط الصوتية للكلام، كل ذلك مؤشرات كثيرة جدا ومعقدة للشخصية، وإن إحدى الوظائف المهمة جدا للغة هي إعلانها باستمرار للمجتمع عن المكان السيكلولوجي الذي يشغله كل أعضائه"¹⁶ فاللغة تنشأ في أحضان المجتمع ومن ثم تكون هي المشترك الجامع بين أفرادها، يتوصلها كل واحد تبعا لأغراضه النفسية، فتعلق بها نبرات صوته وطريقة تفكيره وأسلوبه في التعبير عن الأشياء، إن اللغة هي رؤاه وتصوراته للحياة.

تعد اللغة الوسيلة المثلى للتفكير عند الانسان والتعبير عن هويته، فمن خلالها يستطيع إنتاج الخطابات اللامتناهية، كونها الأداة القادرة على تمكينه من رؤية العالم وفهم قوانينه والعمل على تحديدها، بيد أنه ليس في مكنة الانسان بمفرده إبداع نظام تواصل يقع على عاتقه إنشاء فعل التفاهم

بين أفراد المجتمع، أو وضع قواعد تخاطبية بمعزل عن المجتمع الذي يؤويه، بل تكون اللغة من الصناعات التي يضطلع بها المجتمع ومن إنتاجه، كونها المشعر الرئيس بانتماء الفرد إلى المجتمع، إذ "في أحضان المجتمع تكونت اللغة، وجدت اللغة يوم أحس الناس بالحاجة إلى التفاهم فيما بينهم"¹⁷، فسبيل خلق نظام لغوي يعنى بالتواصل والتفاهم وتشكيله هو المجتمع وليس الفرد، ذلك أن أغراض الجماعة ومشاعرها وأفكارها متعددة ومختلفة لا تنتهي عند حد، يساهم هذا التعدد في جعل اللغة كائنا نابضا بالحياة، آخذا دوما في التطور والنمو، يكون ذلك عبر التداول والاستعمال في مختلف المواقف التواصلية، بينما تظل أغراض الفرد ومشاعره واحدة تعبر عن نفس واحدة بطريقة واحدة كذلك، والذي يتعدد هي المواقف التواصلية، لكنها لا تنشئ اللغة. يعتمد الفرد من فوره يساهم في تشييد الصرح التواصلية المسمى اللغة، والفرد بوصفه عنصرا فاعلا يقع على عاتقه حمل هوية المجتمع، فإنه في مؤسسة المجتمع كالكلمات في نظام اللغة عند الاستعمال، فإنها تسك "كما تُسكُّ العملات، وتظل متداولة ما دامت سارية المفعول، في -أي الكلمات- عملة التفكير، ونحن نمتلك منها أرصدة سائلة بقدر ما نملك ناصية لغة ما معينة، وعندما نتفاهم مع أحد فإننا نتفق على ثمن يجب دفعه، وعندما لا نكون مخلصين فإننا لا ندفع إلا كلاما زائفا، وعندما نصف اللغة والنقد معا بأنهما رصيدان، فإننا نلفت النظر إلى دورهما في تحقق الفرد، فهما قدرة كامنة تجعل تحقق الفردية ممكنا عن طريق توسيع نطاق الفعل عند من يمتلكونها، وبالتالي تعيينهم على التكيف مع المجتمع"¹⁸ بوصفه مؤسسة لها هوية خاصة تشكلت في ضوء إسهامات أبنائها، أمدتها اللغة بطاقات ضخمة لتجسد الأفكار والتعبير عن المشاعر، بحيث يظل الفرد يتواجد قائما بما يتعين عليه فعله نحو هذه المؤسسة محافظا على تماسكها، كاشفا عن عمق علاقته بها.

يلقي الفرد المتكلم مقاصده لتقع في قبضة اللغة، واللغة بوصفها الوسيلة البارزة التي يلتجئ إليها الإنسان للتواصل والتفاعل مع وسطه الاجتماعي؛ هي أيضا ذلك الميدان الذي يكشف من خلاله المتكلم عن أغراضه للمتلقين عبر موادها، مبرزاً ثقافته وأفكاره المنبثقة عن هوية مجتمعه، ذلك أن "أفعال اللغة هي أفعال الهوية"¹⁹ فكلاهما ينتظم الآخر، أو إن شئت قل؛ إن اللغة والهوية فعل واحد يعي في صورة خطاب لغوي منسجم العناصر والأجزاء، أنتجه فرد متمرس باللغة، يحيل إلى هوية مجتمع ما، يختص بروافد ثقافية وقيم حضارية

تقوم الدورة التخاطبية على اعتبار أن اللغة مؤسسة اجتماعية تنتظم أفكار الناس وأغراضهم، وأنها شِركَةٌ بينهم جميعا، بوصفها النظام التواصلية القادر على إشعار الفرد بالانتماء إلى مجتمعه وإلحاقه به، كونه شخصا يحمل بعض ملامح هوية المجتمع الذي يحيا في وسطه، وإذا كانت اللغة هي "ترجمة رموز فعلية متخصصة آليا للدوال والمفاهيم الجزئية والكلية المجردة المحفوظة في ذهن أبناء اللغة"²⁰ الواحدة، كونها الوسيلة المادية للفكر القادرة على ملئته وجعله نسقا واحدا مرتبا دالا على وعي الإنسان وإدراكه بهويته الاجتماعية، فاللغة إذن هي الطاقة الجبارة التي تمكن الإنسان من التعبير عن نفسه وأفكاره وشعوره، وتجعله يشعر بالانتماء إلى مجتمع يتمتع بهوية متفردة، وباللغة وحدها يستطيع إنتاج الكلام من أجل التواصل مع بني بيئته والتفاعل معهم، وفي رحبها يتم التفاهم والتضامن أيضا، كون فعل تعاطي

اللغة الأم ممارسة وجدانية وثيقة الصلة بعاطفة الانسان، ينعقد هذا الرباط الغليظ من دون أن يكون لمستعمل اللغة اختيار، أو دخل فيه تنجيذه.

يمثل البحث في قضية الترابط الواقع بين اللغة وهوية المجتمع مدخلا قرائيا هاما، بالنظر إلى ممارسة اللغة هي تجسيد للهوية، وان تعاطي أفعال الكلام في المواقف المختلفة هو بالضبط تجليات هوية المجتمع الواقعة في قبضة التعبير اللغوي للفرد، وهذا الذي ذهب إليه الرأي القائل بأن "العلامة اللغوية تجسد العلاقات الاجتماعية لمستعملها، وضمن هذا المفهوم، فإن الهوية الاجتماعية حاضرة في اللغة ذاتها"²¹، من هنا يدرك المتلقي بأن هوية الفرد مستعمل اللغة هي هوية المجتمع، وأن مناحي خطاباته مع غيره وطرائق حديثه وأسلوبه في تعاطي اللغة هي عوامل بارزة في تشكيل شخصيته وصياغتها وفق ما تقتضيه نظم المجتمع وهويته الجامعة.

تنصرف الأفكار والأغراض والمشاعر كلها لتتجمع في اللغة، مشكلة بذلك نسقا ثقافيا منتظما، يعبر عن هوية المجتمع، ذلك أن الفرد المتكلم يستكمل أطواره داخل المؤسسة الاجتماعية ويتم دوره المنوط به تبعا لقوانين المؤسسة الجامعة، وليست هذه القوانين خلا التقاليد والعادات والمعتقدات وغيرها، وإذا كان لفظ اللغة يطلق ويراد به اللسان البشري، فإن معظم الدراسات اللسانية المعاصرة "تسعى للكشف عن رمزية الثقافة داخل الخطاب؛ إذ من المسلم به أن ثقافة أي مجتمع وتاريخه وعقله، لا يمكن أن تنفصل عن تاريخ لسانه، فالحياة والتواصل مع الآخرين يقتضيان لسانا مشتركا، ويحتفظ هذا اللسان بأثر الثقافة المشترك، فاللسانيات إذا بعد ثقافي لا يمكن إغفاله في البحث، فاللسان هو الوعاء لثقافة فعلها في الذات، (...) ويأتي اللسان ليعبر عن هذا الفعل، لأنه هو الذي يضمن للثقافة استمراريته عن طريق الخطابات، ومن ثم تصبح العلامة اللغوية مركز استقطاب لفكرة ثقافية، وأداة توصل داخل الخطابات، وبوسطها تمرر الثقافة أنساقها إلى المتلقي، ليعاد انتاجها مرة أخرى، ومن ثم تكتسب المصادقية والاستمرارية، وتكتسب الفكرة الثقافية قيمتها داخل العلامة اللسانية، لكونها تحمل بعدا تواصليا، يضمن لها استمراريته داخل الخطابات، وإذا كان التواصل الفني يتحقق عن طريق التلقي الجمالي، فالتواصل الثقافي يتحقق عن طريق التلقي الثقافي"²²، تتحقق إذا ثقافة الفرد والمجتمع عن طريق اللغة، فمنها تستمد وجودها، ومن خلالها تكتسب استمراريته، لهذا أضحت العلامة اللغوية بوتقة تتجمع فيها فكرة ثقافية تستدعي النقاش، وأن اللغة هي الصرح العظيم الذي تخزن فيه أنساقا لا متناهية من الثقافات، وليست الثقافة في هذا السياق؛ سوى عنصرا من جملة عناصر أسهم في تشكيل هوية الفرد والمجتمع، تكون اللغة هي وجهة المتكلمين قصد تجسيدها.

4-الخاتمة:

تناول هذا البحث علاقة الانسان باللغة؛ كونها تمثل مرجعية صادقة عما انطمر في أطواء نفسه وثناياها، إن اللغة ممارسة إنسانية قادرة على تجسيد أفكار المتكلم وأغراضه النفسية، فالذي ينبغي الاطلاع على وجدان الفرد أو هوية المجتمع، فإنه سيتوجه تلقاء الخطابات التي أنتجها هذا الفرد، أو صدرت عن ذلك المجتمع، وعليه يستخلص من هذا النتائج التالية:-

اللغة خاصية الانسان؛ ومن ثم فهي المشترك الجامع الذي يضمن تماسك المجتمع وترابطه، وتفاعل أفرادهِ وتفاهمهم على نحو معين، بحيث تعطف اللغة الفرد على المجتمع وتجعله قادراً على الدلالة عليه. للمجتمع دخل عظيم في تكوين اللغة وتشكيل نظامها التواصلية، ففي رحابه تحيا وتأخذ في النمو والتطور، ذلك أنها بعض منه، يعترها ما يعتره من بروز وخفوت.

تتميز اللغة بقدرة فائقة على تشكيل شخصية الانسان وصياغتها على نحو معين، فهي المعين الذي يمدّه بإمكانات تواصلية تظاهره على نقل أفكاره ورؤاه، وتجسيد ما ترسب في كوامن نفسه من خواطر وعواطف وانفعالات.

ولئن كانت اللغة عوناً لائقاً يظاهر الفرد على تجسيد أحواله النفسية من عواطف وانفعالات في شكل مادي؛ فإنها المرجعية الجامعة التي تسعفه لأن يكون دالاً على هوية مجتمعه وقيمه البارزة.

في الانسان جبلة ميل ناحية الحركة والتفاعل، فهو ينطق بلسانه ليبث الحياة في الأشياء، ويجعل منها عناصر متحركة تتفاعل مع محيطها، متوسلاً في ذلك اللغة متمرساً بها، ومن ثم تنشأ بينه وبين اللغة وشائج قربي لكانها صلة رحم أو علاقة نسب.

تجيء عناصر هوية الفرد بارزة في مواد اللغة، تجسدها الألفاظ والعبارات، إن هويته البارزة تلك؛ هي صورة تعكس هوية مجتمعه.

الهوامش:

- ¹ - ابن منظور: عبد الله محمد بن المكرم بن أبي الحسن بن أحمد الأنصاري الخزرجي: لسان العرب: تح: عبد الله الكبير، محمد أحمد حسب الله، هاشم محمد الشاذلي، دار المعارف، القاهرة، مج 5، ج 45، ص 4049-4051.
- ² - سورة الشعراء الآية 195.
- ³ - محمد الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، ج 19، ص 190.
- ⁴ - سورة إبراهيم الآية 4.
- ⁵ - الألوسي: أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج 13، ص 184.
- ⁶ - ابن جني: أبي الفتح عثمان بن جني، كتاب: الخصائص، تح: محمد علي النجار، المكتبة العلمية، الخصائص، ج 1، ص 33.
- ⁷ - محمود فهد الحجازي: أسس علم اللغة العربية، دار الثقافة، القاهرة، ص 7.
- ⁸ - محمود فهد الحجازي: مدخل إلى علم اللغة، دار قباء، القاهرة، ص 12.
- ⁹ - جوزيف فندريس: اللغة، تر: عبد الحميد الدواخلي، محمد القصاص، تقديم: فاطمة خليل، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ص 10.
- ¹⁰ - جون جوزيف: اللغة والهوية - قومية - إثنية - دينية، تر: عبد المور خراقي، عالم المعرفة، الكويت، العدد 342، ص 29.
- ¹¹ - جبرار جهامي: الاشكالية اللغوية في الفلسفة العربية - دراسة تحليلية نقدية - ط 1، (1994)، دار المشرق، بيروت، ص 13.
- ¹² - غازي مختار طليمات: في علم اللغة، ط 2، (2000)، دار طلاس، دمشق، ص 24.
- ¹³ - سالم علوي: شجاعة العربية أبحاث ودروس في فقه اللغة، دار الآفاق، ص 25.
- ¹⁴ - غازي مختار طليمات: في علم اللغة، ص 29.
- ¹⁵ - أحمد مذكور، رشدي أحمد طعيمة، إيمان أحمد هريدي: المرجع في مناهج تعليم اللغة العربية للناطقين بلغات أخرى، دار الفكر العربي، ط 1، (2010)، ص 47.
- ¹⁶ - جون جوزيف: اللغة والهوية - قومية - إثنية - دينية، تر: عبد المور خراقي، عالم المعرفة، الكويت، العدد 342، ص 110.
- ¹⁷ - فندريس: اللغة، ص 35.

- ¹⁸-فلوريان كولماس: اللغة والاقتصاد، تر: أحمد عوض، مراجعة: عبد السلام رضوان، عالم المعرفة، الكويت، ص6.
- ¹⁹-أندري تابوني -كيلر: دليل السوسيولسانيات، تحرير: فلوريان كولماس، تر: خالد الأشهب، ماجدولين النهيبي، ط1، (2009)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ص679.
- ²⁰-إبراهيم بن مراد: مسائل في المعجم، ط1، (1997)، دار الغرب الإسلامي، ص39.
- ²¹-جون جوزيف: اللغة والهوية -قومية -اثنية -دينية-، تر: عبد النور خراقي، عالم المعرفة، الكويت، ص67.
- ²²-عبد الفتاح أحمد يوسف: لسانيات الخاطب وأنساق الثقافة -فلسفة المعنى بين نظام الخطاب وشروط الثقافة-، ط1، (2010)، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ص18-19.